شهرية المسرح

الروايات الختامية للفرقة الفرنسية

مطلع نجم عظيم

شهدنا هذا النجم منذ بداية الموسم يلمح فى الحين بعد الحين لمحات بارقة خاطفة ، فى قصة بول جيرالدى التحليلية الظريفة « لو أنى أردت » ، ثم فى تلك المأساة الرائعة القوية الزاخرة بالروح الشعرية والفكرة العالية الفلسفية التى أسماها مؤلفها جان جيرودو باسمها الغامض المتناقض « لن تقع حرب طروادة » .

وكان هذا النجم يتألق فيجتذب الأنظار ، ولكنه لم يكن يستأثر بها طول الوقت . لقد كان فى الفرقة التى تحيى ذلك الموسم الفرنسى على مسرح دار الأوبرا الملكية أكثر من نجم متألق فى منظومتى الرجال والنساء . وبلغ الموسم منتصفه . ثم عرضت الفرقة على المسرح من برنامجها العتيد رواية لستيف باسير « سأحيا حياة حب عظيم » . وهنا ، هنا بعد لحظات قصار من البداية ، سطعت ميشيل ألفا النجم المتألق سطوعها العظيم . هنا انتفضت عن قوة كامنة انفجارية لم تدع من الشهود السامعين كياناً مهما تكن صلابته إلا زلزلته ، ولا قلباً مهما يكن برود وجموده إلا هزته ، ولا نوطاً من نياطه إلا مزقته .

هى هنا فى دور الفتاة المشبوبة القلب ، العارمة الحب ، ولم يكن حبها حلماً من أحلام العذارى بالزواج فحسب ، بل هو حب عظيم لأنها كانت

تحب فى حبيبها الحب نفسه . ولقد هبطت عليهما دوقة حسناء من ذوات الحظوة فى البلاط الملكى كما تنحط الداهية غير مرتقبة ولا مستنظرة ، فنازعتها هذا الحب ، واستعانت على ذلك بما تملكه من نفع للفتى وشفاعة لأسرته وكانت من الأسر المغضوب عليها المبغدة من بلاط شمس الملوك لويس الرابع عشر . وتتجسد ميشيل ألفا شخصية الفتاة كلود فى بساطتها وطهارتها وقوة طبعها التى تفردها عن عامة البشر . وهنا تظهرنا الممثلة العظيمة فى أسارير وجهها ولمحة عينيها وحركة جسمها المشدود الأعصاب ونبرة صوتها المنفعل الكظيم على مبلغ ألمها الغاضب وحدة غضبها الأليم . ويغلو بها الألم ويشتد قبضه على مخنقها فتتحصن منه أحياناً بالتهكم المرير . وهى تبدو فى ذلك جميعه وكأن نفسها تستعذب الألم الذى تلعنه .

ولعل أروع المواقف التى وقفتها ميشيل ألفا وأفجعها ، هذا الموقف الذى أبت فيه الفتاة أن تعتمد الغض من غريمتها وبخس قيمتها للغلبة على قلب من تحب والظفر بإيثاره . فهذه خطة ترتضيها محظيات البلاط ويبلغن بها المراد . ولكن فتاتنا لا تحفل النجاح وإنما مطلبها الحب فى تمام صدقه وكماله . ومن أجل ذلك اختارت الموقف الذى تتجلى فيه عظمة نفس المحب فى إذلاله النفس العزيزة أمام المحبوب ، إنها ستبكى بالدموع الغزار الحرار بين يديه وستصف له مبلغ حبها له ومقدار هيامها به .

وليس مثل ألفا فى تحميلها الجمل القصار أبلغ المعانى المؤثرة الكبار . وما أنس لا أنس صوتها تصيح بغريمتها التى تم لها الظفر بمن تحب : « إذهبى فالحقى به . إذهبى فالحقى به . » صيحة مفاجئة فيها قوة ، قوة اليأس كله .

ثم حوارها مع صديقها الشاعر الكهل فى ختام الفصل الثانى وقد ضاع كل رجاء :

هى : « من أجلك عدلت عما كنت عليه عازمة . »

هو : « ليكونن لك على ذلك حسن الجزاء . »

هى : « من يجزينى ؟ . . . يجزينى الله ؟ »

هو : « أرجو ذلك . »

هى : « ولكنه لم يشأ هذا الذى جرى . . . إنه لأجرى بعدله أن لا يحيط علمه بما جرى الليلة هنا . »

وأخيراً — فى الفصل الأخير —

تتحقق الفتاة أن الفى لا يزال يحبها على الرغم من زواجه بغيرها . فترضى بما قسم لها ، ويعاودها الايمان بالعناية ويعمر نفسها :

« لقد ساورتنى الشكوك ، وصدر منى فى حق الله تعريض وتجديف ولكنه هو الوهاب الكريم الذى حبانى بهذا الحب ، وهو الذى جعل هذا الحب عظيما حتى خرج من أحببته بنصيب منه . »

وتأمر بأن تغلق عليها أبواب القصر لتخلو فيه بقلبها الكليم وحبها العظيم .

ويهمس صوت بين المغتبط والحزين ، صوت الفتاة ميشيل ألفا عميق الرنين ، بهذه الكلمة ، كلمة الختام ، وقد خيم فى القصر الظلام :

« لم يبق لى بعد هذا أمنية أتمناها لقد بلغت ما أردت . »

وتنزل الستار بين عاصفة من التصفيق والتهليل لم يسبق لها مثيل . ويخرج المتفرجون وهم أجمعون لا يزالون تحت تأثير ما شهدوه مهتاجى النفوس جياشى الشعور . وذلك جله ، إن لم يكن كله ، من فيض هذه المرأة ، هذه الجنّية العبقرية ميشيل ألفا . فلقد كانت مع إجادة من حولها من الممثلين والممثلات كافة ، هى المسيطرة على المسرح حتى فى فترات غيبتها عنه .

ولقد أقسم من أقسم أنها فى هذه الرواية قد استولت على الأمد وجرت إلى النهاية ، وبلغت الغاية التى ليست وراءها غاية . وأحسبنى كنت من المقسمين . فلما أن شهدتها بعد أيام معدودات فى مسرحية بول كلوديل « البشرى المبلغة إلى مارى » ، ونظرت إليها فى أطهار فيولين المبتلاة القديسة بعد أن كانت كلود العاشقة الواهلة ، عجبت لها كيف خرجت من صورة إلى صورة . فى هذا اليسر وهذه السهولة .

ثم لم ألبث أن رأيت ما لم أقض منه العجب : رأيتها هى التى عهدتها قد انتهت إلى أبعد الغايات — تمضى فى التفوق وراء ذلك أشواطاً ، حتى لقد فاقت نفسها أضعافاً .

هذه هى ميشيل ألفا . وإنى — وايم الحق — لا أزخرف القول حين أقول إنى كنت أشهدها فى هاتين الروايتين وكأنى أشهد فى السماء عن كثب مطلع نجم عظيم .

عبد الرحمن صدقى